الفصل الخامس

الهجرات الكبيرة القادمة

فن التنبؤ صعب جدا، خصوصا ما يتصل منه بالمستقبل .[1]

مارك توين

في العهدين القديم والحديث حكايات كثيرة، تروى لإعطاء الموعظة، في بيان الكيفية التي فقد فيها الأوائلُ في الولادة أو المختارون الأُول، أماكنهم في بيوت آبائهم. فعيسو الجائع يبيع حقه، الناتج عن انه المولود الأول، إلى أخيه يعقوب مقابل وجبة من الحساء. وفي إنجيل ماثيو ٢٢ يقارن عيسى (عليه السلام) جنة السماء بوليمة عرس يعدها ملك لابنه. وعندما رفض الضيوف المدعوون بغلظة دعوة الملك، أرسل خدمه إلى الطرقات العامة والفرعية لإحضار الغرباء إلى بيته للاحتفال بزواج ابنه.

وفي الوقت الذي بدأت تموت فيه الشعوب الغربية، فإن الغرف الفارغة في بيت الغرب لن تبقى فارغة لمدة طويلة. في أمريكا، مُلئت الأماكن التي أعدت لأربعين مليون نسمة لم يولدوا، وفُقدوا منذ قضية رو ضد ويد، ملئت بالفقراء الممتنين من آسيا وأفريقيا

وأمـريكا اللاتينيـة. وفي الوقت الذي يتـخلى فـيـه الأوروبيـون عن الأطفـال، فـإن الأمـاكن التـي أعـدت لهـؤلاء الأطفـال، أيضـا، سـوف يشغلها الغرباء.

دعونا نزُر ثانية إحصـاءات الأمم المتحدة عن إفراغ أوروبا من السكان. في العام ٢٠٠٠ كان هناك (٤٩٤) أربعمائة وأربعة وتسعون مليون أوروبي بأعمار من خـمسـة عشـر عـامـا إلى خـمسـة وستين عـامـا. هذا الـرقم سوف يغطس لينـزل إلى (٣٦٥) ثلاثمائة وخمسة وسـتين مليـون نسـمـة مع حلول العـام ٢٠٥٠ . ولكن (١٠٧) المائة وسبعـة الملايين من الأوروبيين الذين تبلغ أعمارهم فوق الخـامسـة والستين اليوم سوف يُحلق عددهم إلى (١٧٢) مائة واثنين وسبعين مليونا. وفي غضون خمسين عاما، فإن نسبة الأوروبيين الشباب ومتـوسطي الأعـمـار إلى الشيـوخ المسنين سـوف تهبط من خـمسـة لواحد إلى أن تكون اثنان لواحد.[٢] ومع انسـحاق دول الرفاهـية في أوروبا من قبل الآن تحت عبء البـرامج الاجتمـاعيـة، فمن ذا الذي سيـدفع للصـحـة، وللرعـاية، وللتـقـاعـديات لكبـار السن؟ ومن الذي سيعتني بالمسنين في مراكز التقاعد وبيوت التمريض؟ ومع هبوط عدد الأطفال بأسرع من هبوط عدد الذين هم في عمر العمل، فمن الذي سـوف يحش المروج، وينظف المباني، ويغسل الصـحـون، ويعـد الطعـام في مطاعم أوروبا ويقـدمـه؟ ومن أين سـتـأتي مـربيـات الأطفال؟ ومع سكان عـاملين أقل بنسبة خمسة وعشرين بالمائة ومع

سكان مسنين أكبر بنسبة تسعين بالمائة، من أين ستأتي الممرضات الجديدات والأطباء الجدد للعناية بهؤلاء المسنين؟

مع حلول العام ٢٠٥٠ سيكون ثلث شعب أوروبا فوق عمر الستين. وفي المملكة المتحدة، وألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا سيكون واحد من كل عشرة فوق سن الثمانين![٣] وسيكون العمر المتوسط للأوروبي خمسين عاما، أي أعلى بتسع سنوات فوق العمر المتوسط لأسن أمة على الأرض اليوم وهي اليابان . في كتاب الفجر الأشيب: كيف ستحول موجة العمر القادمة أمريكا والعالم، كتب وزير التجارة السابق بيت بيترسون يقول:

> في غضون الثلاثين سنة القادمة، توحي التوقعات الرسمية بأنه سوف يتوجب على الحكومات في معظم أكثر الدول تقدماً أن تصرف على الأقل نسبة (٩٪) تسعة بالمائة إلى (١٦٪) ستة عشر بالمائة إضافية من الناتج المحلي الإجمالي سنويا لتفي ببساطة بوعودها بالمزايا الموعودة لكبار السن. وإن دفع هذه التكاليف، من خلال فرض الضرائب الزائدة، سوف يرفع عبء الضريبة الإجمالية بنسبة إضافية لا يتصورها الفكر تصل إلى نسبة ٢٥٪ - ٤٠٪ بالمائة من كل الأجور القابلة لفرض الضريبة من كل عامل _وهذا في بلاد تتجاوز فيها من قبل الآن معدلات الضريبة الإجمالية على المرتب في الغالب نسبة (٤٠٪) أربعين بالمائة. أما إذا لجأنا إلى الصرف بوجود العجز المالي، فإنه سيكون

علينا أن نستهلك كل المدخرات والمزيد من مجمل مدخرات العالم المتقدم.[٤]

هذا هو المعادل المالي لشتاء نووي. وإذا كانت أوروبا ترغب في استبقاء شبكة سلامتها الاجتماعية، فهناك ثلاثة خيارات: يجب الحصول على تريليونات من الدولارات في إيرادات الضريبة الجديدة، أو يجب على النساء الأوروبيات أن يبدأن بحمل الأطفال بضعفين أو بثلاثة أضعاف من حملهن السابق، أو يجب على أوروبا أن تستورد ملايين من العمال في كل عام. هذه هي الخيارات القاسية التي تواجه القارة القديمة.

ومع ذلك، وكما يلاحظ يوسف الشامي من وكالة السكان في الأمم المتحدة، "فليس هناك من علماء السكان من يعتقدون بأن معدلات الولادة سوف تقفز إلى الأعلى. كم سيستغرق من الوقت إقناع امرأة أن يكون لديها أربعة أطفال؟ إن الناس مهتمون بمظهرهم، وتعليمهم، ومساراتهم الوظيفية."[٥] إن معدل الولادة في أوروبا ما يزال يهبط طوال عقود. وليس الأمر ضربة حظ. ومعدل الولادة الذي يقع تحت مستويات استبدال السكان هو معدل شائع في كل أمة في أوروبا باستثناء البانيا، وهي بلد مسلم.

وليست هذه المسألة مسألة مؤامرة بل هي مسألة إجماع، من الاختيار الحر. فالنساء الأوروبيات قررن أنهن يردن طفلا أو

طفلين، أو لا يردن أي طفل، ويملكن الوسائل لتحقيق هذه الخيارات وهي مانع الحمل، والتعقيم، والإجهاض ._وتنظر النساء الأوروبيات إلى هذه الرغبات الشخصية على أنها أكثر إلزاما بكثير من الدراسات السكانية التي تصف الحال التي ستكون عليها أوروبا عندما يكُنّ بعمر السبعين أو الثمانين أو بعد أن يقضين نحبهن.

ويكتب جوناثان ستيل من الغارديان فيقول: إن " قرارا ضخما" يواجه أوروبا، " إذا ما كان ينبغي لمستويات المعيشة ألا تهبط، قد يتوجب على بلاد الاتحاد الأوروبي أن تسمح بزيادة (٦٠) ستين ضعفا في الهجرة، وهذا ما يغذي احتجاجات الجناح اليمين ويتسبب في إلحاق ضرر إضافي لعلاقات المنطقة العرقية الهشة . هذا هو رأي خبراء السكان المعتبر وهم يتفحصون حقيقة سكان أوروبا المتقدمين في السن."[٦]

الهجرة الضخمة قد بدأت من قبل الآن. ففي عام ٢٠٠٠ أخذت إنكلترا "١٨٥,٠٠٠" مائة وخمسة وثمانين ألف مهاجر، وهو رقم قياسي.[٧] وفي العام ١٩٩٩ تسلل (٥٠٠,٠٠٠) خمسمائة ألف أجنبي بصورة غير شرعية إلى الاتحاد الأوروبي، وهي زيادة بعشرة أضعاف عن العام ١٩٩٣.[٨] وفي شهر أيار مايو ٢٠٠١ كتبت الواشنطن بوست تقول:

منذ عام فقط، كانت اكتشافات سفن غارقة مكتظة بالحمولة البشرية التي تبلغ (٥٠٠) خمسمائة إلى (١٠٠٠) ألف من الناس

أمرا جديدا وكان يولد عناوين رئيسية وغضبا عبر أوروبا. ولكنها الآن صارت أمرا معتادا في المياه الواقعة بين تركيا والمواقع المقصودة في اليونان، وإيطاليا، وبعيدا إلى الشمال حتى الريفيرا الفرنسية.[٩]

رواية معسكر القديسين لجان راسبيل في العام ١٩٧٢ تدور حول غزو لفرنسا يقوم به أسطول ضخم من المعوزين من العالم الثالث، وأوروبا التي شلتها فلسفة المساواة والتحررية الليبرالية تكون عاجزة عن المقاومة، يبدو أنها رواية حملت نبوءة. لقد بدأ التاريخ يقلد الفن.

تبدو أوربا عاجزة عن إيقاف هذه الملايين عن المجيء وتولي الأعمال الشاغرة في الوقت الذي يموت فيه جيل الحرب. وفي الحقيقة، فإن أرباب العمل سوف يطلبون إحضار هؤلاء الملايين وإدخالهم البلاد . ومثل ذلك ستفعل الملايين المتنامية من الشيوخ وكبار السن. ومع تدفق الملايين إلى أوروبا من شمال أفريقيا ومن الشرق الأوسط، فإنهم سيجلبون معهم ثقافتهم العربية والإسلامية، وتقاليدهم، وولاءاتهم، وإيمانهم، وسيخلقون نسخة مكررة من أوطانهم في الأرض القلب من الغرب. هل سيندمجون، أم أنهم سيبقون بصفتهم أجزاء لا تهضم من أفريقيا ومن البلاد العربية في المعسكر القاعدة لما كان يوما أرض النصرانية؟ تمعن بالأرقام .

في الوقت الذي تنكمش فيه أعداد السكان في البرتغال، وإسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا، واليونان جميعا، نجد على الشاطئ الآخر من البحر الداخلي (المتوسط) أن عدد السكان في المغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، ومصر سوف ينفجر بثلاثة وسبعين مليون نسمة في خمسة وعشرين عاما. ففي العام ١٩٨٢، عندما كان المؤلف في القاهرة، كان هناك أربعة وأربعون مليون مصري. وبحلول العام ١٩٩٨ كان هناك أربعة وستون مليون مصري. وعندما يحل العام ٢٠٢٥ ينتظر أن يصل عدد سكان مصر إلى ستة وتسعين مليون نسمة. في القرن التاسع عشر غزت أوروبا أفريقيا واستعمرتها. وفي القرن الحادي والعشرين، تغزو أفريقيا أوروبا وتستعمرها. ويكتب نيقولاس أبرستادت، وهو خبير السكان في معهد المشروع الأمريكي ويقول: "في العام ١٩٩٥ كانت أعداد السكان حسب التقديرات في أوروبا (بما فيها روسيا) وأعداد السكان في أفريقيا متساوية بالضبط تقريبا. وعندما سيحل العام ٢٠٥٠، ووفق هذه التقديرات، سيفوق الأفارقة بأعدادهم الأوروبيين بنسبة أكثر من ٣إلى ١."[١٠] إن وباء الإيدز فقط هو الذي يقف في الطريق ويمنع الشعوب الأفريقية من إلقاء ظلالها على أوروبا واكتساحها في نهاية المطاف.

الأمم الأوروبية متجانسة، وهي في هذا على النقيض من أمريكا. فليس لدى أوروبا تاريخ يرحب بالأغراب أو تاريخ في إدماج المهاجرين. وهذه الشعوب التي تختلف ألوانها، ومعتقداتها، وثقافتها سوف تصل كذلك إلى أوروبا في الوقت الذي تتهاوى فيه الدولة - الأمة فيها. ومنذ العام ١٩٩٠، تفتتت ثلاث أمم أوروبية هي - الاتحاد السوفيتي، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغوسلافيا - إلى إحدى وعشرين أمة. وقد تولد قريبا أمتان أخريان هما كوسوفو والجبل الأسود. والحركات الانفصالية حية في روسيا، ومقدونيا، وإيطاليا، وكورسيكا، وبلاد الباسك من إسبانيا، وفي سكوتلندا، وويلز، وبافاريا، ومنطقة سكين في السويد. وفي بلجيكا يشتعل النزاع القديم في اللغة والثقافة بين الفلمنغ والوالون.

ولاحظت الغارديان اللندنية بجفاف في عدد شهر تشرين أول (أكتوبر) من عام ٢٠٠٠[١١] فقالت "في أوروبا، التي يعود تاريخ سكانها الأصليين البيض إلى ما قبل (٤٠,٠٠٠) أربعين ألف عام، لن يلقى تصاعد الأكثرية غير البيضاء الترحيب والتحية ... برباطة الجأش." وأعمال الشغب العرقية التي حدثت في الربيع في أولدمان وليدز بين سكان من جنوب آسيا وبين سكان بيض تؤكد وجهة نظر الغارديان. لقد ظهرت أحزاب مناوئة للهجرة ومنها - الجبهة القومية بقيادة جان - ماري لوبن في فرنسا، وحزب الحرية بقيادة خورخي هيدر في النمسا، وحزب الشعب السويسري بقيادة

كريستوف بلوخر. وفي الوقت الذي تتصاعد فيه أمواج الهجرة من الأمم الإسلامية من شمال أفريقيا ومن الشرق الأوسط ومن الأمم السوداء في جنوب الصحراء، وتصل الأمواج إلى ذؤابتها وتتكسر إلى أوروبا، ستصبح مسألة الهجرة أكثر تفجراً مما سبق. الأحزاب الكبرى سوف تمسك بالمسألة من الأحزاب الصغرى، أو أن الأحزاب الصغرى ستصبح هي الأحزاب الكبرى.

يبدو منذ ما قبل الآن، أن قائدة الحزب الألماني المسيحي الديمقراطي أنجيلا ميركل تتحرك لاستغلال ردود الفعل الصادرة ضد الهجرة الإسلامية. وتكتب نيويورك تايمز وتقول: "فكرة ألمانيا الموحدة بصفتها مجتمعا متعدد الثقافة من حوالي(٨٠) ثمانين مليون نسمة تقريبا مع أكثر من (٧) سبعة ملايين نسمة ولدوا أجانباً تبدو فكرة تزعج [السيدة ميركل]، فليس هناك أمة أخرى في أوروبا لديها مثل هذا العدد من الأجانب."[١٢]

السيدة ميركل مزعوجة من طلبات الولايات المتجددة بأن تدخل تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، وذلك لأن عضويتها في الاتحاد سوف تمنح الأتراك الحق في التحرك بحرية عبر أوروبا. وقد أخبرت ميركل روجر كوهين من التايمز وقالت: "حوالي نسبة (٧٥٪) خمسة وسبعين بالمائة من الأتراك في العالم ممن يعيشون خارج تركيا موجودون في ألمانيا."

لا نقول إن عليهم ألا يكونوا مسلمين . ولكننا نقول فعلاً إننا بلد له خلفية مسيحية، ويجب على الأتراك أن يفهموا هذا ... إن دعوة تركيا لتكون مرشحة لعضوية الاتحاد الأوروبي كانت غلطة. هناك اختلافات في القيم. فنحن لا نملك الفهم نفسه لحقوق الإنسان . حاول أن تفتح كنيسة في إستانبول.[١٣]

أمم أوروبا صغيرة، ومكتظة بالسكان، وليس لديها خبرة لتكون "بوتقات انصهار." وهكذا، يبدو أن نخبهم الحاكمة أكثر تنبها، وأكثر توجسا، وأصعب عريكة بشأن المخاطر الاجتماعية للهجرة الكبيرة مما عليه الأمريكيون. ولكن هذه الأمم نفسها، ونخبهم الحاكمة متأخرون، بل متأخرون جدا، في الصحوة على الخطر السكاني الذي يتمثل بالسكان الذين يموتون.

بناء الكارثة النهائية (CATASTROIKA)(*)

ما من أمة سوف تتأثر تأثراً مؤذيا من جراء انهيار معدل الولادة فيها أكثر من روسيا. ويتوقع أن عدد سكانها سيهبط من (١٤٧) مائة وسبعة وأربعين مليون نسمة إلى (١١٤) مائة وأربعة عشر مليون نسمة مع حلول العام ٢٠٥٠ , وفي الوقت الذي يموت فيه الروس،

(*) كلمة منحوتة من Catastrophe بمعنى الكارثة والمأساة النهائية + Stroika من اللغة الروسية بمعنى Structure أي بناء.

فإن الصين، حتى وهي تحت سياسة «زوجان وطفل واحد»، تتوقع أن يزيد سكانها (٢٥٠) مائتين وخمسين مليون نسمة مع حلول العام ٢٠٢٥. وهؤلاء لن يقيموا في الوطن. وعدد الرجال الصينيين من قبل الآن يفوق عدد النساء المتوفرات للزواج بأكثر من (٤٠) أربعين مليون رجل. فإذا كانت روسيا الأم عصبية، فهذا ما ينبغي لها أن تكون عليه. وذلك لأن روسيا حتى بعد أن تفتت الاتحاد السوفييتي تملك أرضا تساوي ضعفي ما تملكه الصين.

ثلاثة أرباع كتلة الأرض الضخمة الروسية تقع شرق الأورال، ولكن (٨) ثمانية ملايين نسمة فقط من الروس يعيشون في المساحات الشاسعة التي لا مسالك فيها من روسيا الشرق الأقصى، السكان فيها أقل من السكان الموجودين في جمهورية التشيك. ولكن إلى جنوبهم يعيش (١,٢٥) بليون وربع بليون نسمة من الصينيين، مع توقع أن يولد (٢٥٠) مائتان وخمسون مليون آخرون على الطريق. هذه الحفنة النسبية من الروس يشغلون النصف الشمالي من أوسع قارة على الأرض، يشغلون كتلة من الأرض أكبر من الولايات المتحدة، ومملوءة بأكثر موارد العالم حيوية وأكثرها طلبا وهي: الخشب، والزيت، والذهب.

ويكتب الصحفي البريطاني جون أوماهوني[١٤] ويقول: "إن روسيا تنزف إنسانية بمعدل غير مسبوق لأمة حديثة، وصناعية

وغير معهودة إلا في أوقات المجاعة والحرب." وكان هذا الصحفي في شتاء العام ٢٠٠١ قد سافر إلى الشرق الأقصى وشبه جزيرة كامتشاتكا، وعاد بقصة مروعة من اليأس والموت. فمن قبل سقوط الشيوعية، كانت عاصمة كامتشاتكا قد فقدت ربع سكانها. وفي المناطق القريبة، يكاد الموت الحقيقي للمجتمع المتمدن يكون وشيكا:

> على كل حال، فإن التدهور في السكان كان على أشده في الأطراف الواسعة المكشوفة والمعرضة للخطر من الأراضي الروسية. وربما كان المثل المذهل أكثر من غيره هوتشوكوتكا، فإن قطعة ضخمة من الشرق الأقصى تبلغ من حيث الحجم ثلاثة أضعاف بريطانيا، وفيها ذوى عدد السكان بنسبة مذهلة تصل إلى (٦٠٪) ستين بالمائة، وهبط العدد من (١٨٠,٠٠٠) مائة وثمانين ألف نسمة في العام ١٩٩٠ إلى مجرد (٦٥,٠٠٠) خمسة وستين ألف نسمة اليوم، وهو رقم من المتوقع أن يهبط إلى (٢٠,٠٠٠) عشرين ألف نسمة فقط في غضون السنوات الخمس القادمة، وهو أمر إذا حدث يجعل البنية التحتية للمنطقة غير قابل للإدامة.[١٥]

كانت الصين منذ زمن طويل تتطلع إلى شرائح من سيبيريا بصفتها "الأراضي المفقودة"، المسروقة في القرن التاسع عشر عندما كانت الصين ضعيفة ومضطربة بالثورة وتفترسها القوى الاستعمارية الغربية. وفي أثناء ثورة تيبنغ التي حصدت حياة خمسة

وعشرين مليون نسمة، غبن عملاء القيصر إمبراطورية تشي انغ وأخذوا (٣٥٠,٠٠٠) ثلاثمائة وخمسين ألف ميل مربع شمال آمور وبين يوسوري والبحر. وهذه الأرض، هي الآن المقاطعة البحرية لسيبيريا، وتساوي من حيث الحجم ضعف كاليفورينا، وتتوضع حول منشوريا مثل يد كالفنجان. و فلاديفوستوك، وهي ميناء روسيا على بحر اليابان، والقاعدة البحرية لأسطول المحيط الهادئ، كانت قد تأسست في العام ١٨٦٠ على الأرض التي كانت ملكيتها للصين حتى تلك الحرب. وبما أنه كان على روسيا أن تسلم كل الأراضي التي أخذتها من القازاق، والقيرغيز، والأزبك، والطاجيك، والتركمان، فإن الأراضي التي أخذت من الصين سوف تُطلب ثانية أيضا.

في الشهور الأولى من حكم الرئيس نيكسون في العام ١٩٦٩، اصطدمت القوات الصينية والروسية على طول جبهة آمور. يوسوري. ومع أنه يوجد الآن تفاهم بين بكين وموسكو، فإن الصينيين لم ينسوا ذلك. قبل منتصف هذا القرن، ستحاول بكين على الأرجح أن تستعيد هذه الأراضي، ويمكن أن يكون جيران آلاسكا عبر مضيق برينغ روادا صينيين شبابا قساة، أكثر من كونهم روسا مسنين. ومن قبل الآن، يتحرك المستوطنون الصينيون إلى الأرض الروسية، بالضبط مثلما تحرك الأمريكيون ذات مرة في السابق إلى المقاطعة الشمالية من المكسيك من تكساس قبل اقتطاعها.

وتكتب الفاينانشال تايمز فتقول: "يقلق الروس في الشرق الأقصى بشأن الصين إلى درجة جنون العظمة، وقد وجد استطلاع للرأي أجري في العام (٢٠٠٠) في بريموريف، وهي المنطقة المحيطة بفلاديفوستوك، إلى الجنوب من خاباروفسك، وجد أن نسبة (٧٤٪) أربعة وسبعين بالمائة من السكان توقع أن الصين ستلحق بها كل أو بعض منطقتهم "على المدى ا لبعيد"».[١٦]

ويأتي التهديد الآخر لروسيا من الجمهوريات السوفييتية السابقة إلى جنوبها وهي - كازاخستان، وأوزبكستان، وطاجكستان، وقرغيزستان، وتركمانستان. ودعونا نضفْ أفغانستان إليها، حيث وجه الثوار الإسلاميون فيها ضربة قاضية للإمبراطورية السوفييتية. وتسعى موسكو لإعادة توكيد سلطتها في هذه المنطقة التي تسميها "الخارج القريب، " لها، ولكن الروس هم أوروبيون تاريخيا ومسيحيون أرثوذكس، بينما هذه الشعوب آسيوية وإسلامية، وتتذمر بمرارة لأنها أخضعت للاستعمار وأُخضعت للشيوعية. ويبدو أن احتمال أن تندفع روسيا جنوبا لمعاودة السيطرة على هذه البلاد أقل من احتمال أن يأتي المهاجرون المسلمون شمالا، ربما، مع محاربين مسلمين لانتزاع قطع من روسيا من مثل الشيشان. وحليف روسيا في القوقاز، وهي أرمينيا، وهي أمة مسيحية أخرى، قد التحقت بروسيا، ولاتفيا، وبلغاريا، وإسبانيا من بين الأمم التي لديها أخفض معدلات الخصوبة على الأرض. أرمينيا أيضا بدأت تموت.

بحلول العام ٢٠٢٥ سوف يقترب سكان إيران من سكان روسيا. ومن قبل الآن، كان الإيرانيون يهددون الجمهورية السوفييتية السابقة في أذربيجان. ويبدو تراجع موسكو من آسيا تراجعا لا معدى عنه في الوقت الذي يعتدي فيه الصينيون والمسلمون على بلاد سيطر عليها سابقا القياصرة والمفوضون. إن أكاديمية العلوم الروسية، وهي تمعن النظر في هذه التوقعات السكانية، قد صاغت تعبيرا جديدا هو بناء الكارثة النهائية[١٧] (كاتاستروفكا) ويفهم العلماء أن السكان هم المصير المقدر لكل مجتمع. وفي الوقت الذي ينكمش فيه سكان روسيا، أمعن النظر فيما سيحدث في مكان آخر في آسيا الوسطى.

آسيا الوسطى

(مليون نسمة)

	٢٠٠٠	٢٠٢٥
أفغانستان	٢٢,٧	٤٤,٩
كازاخستان	١٦,٢	١٧,٧
أوزبكستان	٢٤,٣	٣٣,٤
قرغيزستان	٤,٧	٦,١
طاجكستان	٦,٢	٨,٩
تركمانستان	٤,٥	٦,٣
	٧٨,٦	١٧٧,٣

وسكان هذه البلاد الستة يعادلون نصف سكان روسيا اليوم، فإنهم في غضون خمسة وعشرين سنة سيكونون تقريبا بعدد سكان روسيا، وسيكون الروس أسن وأشيب وستكون هذه الشعوب الإسلامية أفتى وأكثر فحولة.

في القرن التاسع عشر ضغطت روسيا الشاسعة، والقوية، والمكتظة بالسكان ضغطت فوق ما سماه القياصرة "رجل أوروبا المريض، " أي الإمبراطورية العثمانية. وبالتوقعات الحالية، فإن عدد السكان في تركيا وعددهم في روسيا سيكونان متقابلين في العام ٢٠٥٠. وبحلول العام ٢١٠٠ سيكون هناك ثمانون مليون روسي فقط. فمن الذي سيكون " رجل أوروبا المريض" عندئذ؟ ومن الذي سيكون الضاري المفترس ومن الذي سيكون الفريسة؟

قبل ذلك الوقت بكثير، كما يقول أناتولي انطونوف، رئيس قسم علم الاجتماع العائلي في الجامعة الحكومية في موسكو، ستقع أزمة: "هذه هي أزمة كل الحضارات الغربية. لماذا نشعر بالسعادة بدون أن يكون عندنا أطفال؟"[١٨] ويود أنطونوف من الحكومة أن تستخدم وسائل الإعلام لترفع من شأن صورة العائلة. فإذا لم يتصرف الرجال والنساء الروس في الحال لزيادة السكان، فإن أنطونوف يخشى من أن المتطرفين يستطيعون استلام السلطة باسم بقاء الشعب الروسي. ويحذر انطونوف فيقول: "إذا لم يتم عكس

التوجه نحو انهيار عدد السكان فإننا سنحصل على دولة فاشية."[١٩]

إذا كانت روسيا تستطيع أن تضع الحرب الباردة وتضع تذمرها من خسارة مكانة القوة العظمى خلفها، فإن موسكو سترى عندئذ في أمريكا حليفا طبيعيا في صيانة وحدتها، وكرامتها، واستقلالها. وينبغي أن يدرك الأمريكان أن الروس سيكونون في أي "صدام للحضارات" هم الذين سيزودون بالرجال الجبهات الشرقية والجنوبية الشرقية للأرض القلب من الغرب.

وبخصوص أوكرانيا، وهي ثاني جمهورية سابقة للسوفييت من جهة الاكتظاظ بالسكان، فإن الأمم المتحدة تتوقع خسارة في السكان تبلغ نسبة (٤٠٪) أربعين بالمائة، وهو الأمر الذي يخفض عدد الأوكرانيين من خمسين مليون نسمة اليوم إلى أقل من ثلاثين مليون نسمة في العام ٢٠٥٠. وهذا توقع متفائل، يقوم على ارتفاع مهم في معدل الخصوبة في أوكرانيا من ١,٢٦ من الأطفال لكل امرأة اليوم إلى ١,٧٠.

لمن يُقرع الجرس

من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، استعمرت الأمم الغربية العظمى معظم العالم. فابتداء من العام ١٧٥٤ عبر الأمريكيون سلسلة جبال أليغينيز ودفعوا الفرنسيين، وبعد ذلك دفعوا الأسبان خارج قارتهم، وابتلعوا نصف المكسيك، وزربوا الهنود الذين بقوا على قيد الحياة في محميات، واندفعوا فوق جبال الروكي إلى المحيط الهادئ، ووثبوا إلى هاواي، ومدواي، وغوام، والفليبين. وفي الجهة الأخرى من العالم، كان الروس تحت حكم آل رومانوف قد سيطروا على كل الأراضي الواقعة من القطب إلى أفغانستان، ومن بروسيا إلى المحيط الهادئ، ونزولا إلى اليد الممدودة لألاسكا إلى مدينة سيتكا. وبقيادة البريطانيين، كانت الأمم الأوروبية تغزو وتستعمر أفريقيا، وجنوب آسيا، وجنوب شرقها، وتؤسس مناطق مغلقة على ساحل الصين التي كانت بلدا مغلوبا على أمره.

أشرطة التاريخ الآن تسير في عكس الاتجاه السابق. والتراجع الكبير من الغرب، الذي بدأ مع انهيار إمبراطوريات أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، يصل ذروته في هذا القرن، في الوقت الذي تكر فيه الموجة الإسلامية الثانية الكبرى منسابة إلى أوروبا، وفي الوقت الذي يعاود فيه سكان آسيا الوسطى والصين ادعاءهم

لاستعادة ما كان قد أخذه القياصرة منهم في القرون الماضية. وبحلول العام ٢٠٥٠، ستكون روسيا قد فقدت قطعا من سيبيريا وستكون قد أُخرجت من القوقاز وأُعيدت خلف الأورال إلى أوروبا. وقد كتب الشاعر دون يقول: "إذا امّحت كتلة من الطين بفعل البحر، فإن أوروبا تكون أقل، بمثل ما لو أن رأسا من البر في البحر امّحى، وبمثل ما لو أن ضيعة من ضياع صديقك أو من ضياعك الخاصة امّحت ... لذلك لا ترسل لتعرف لمن يُقرع الجرس، إن الجرس يُقرع لك."

إيران والخليج

في الاندفاع إلى عاصفة الصحراء، حاجج المؤلف ضد حرب الخليج وفق ما يلي: إن نصرا أمريكيا سيترك لنا واجبات إمبريالية لن يستطيع الأمريكيون الإبقاء عليها إلى أجل غير محدد. وإمارة الكويت لم تكن أمة قابلة للحياة، ولم تكن لتستطيع البقاء بدون حام قوي. ولكن الأمريكيين سوف يتعبون في نهاية الأمر ويعودون إلى وطنهم، مثلما عاد البريطانيون إلى بلادهم، وسوف تستوعب الكويت وتضم من طرف العراق أو إيران. وكل ما كنا نستطيع أن نفعله هو أن نبقي على الكويت مؤقتا. وزيادة على ما تقدم، فإن الخصم الكبير في الخليج كان إيران، فهي لها من السكان ومن الأرض ثلاثة أضعاف العراق.

لقد خسرنا النقاش، وربحت الولايات المتحدة الحرب، ولكن الحجة تبدو اليوم أكثر إلزاما حتى من السابق. ومع قيام أمريكا بتبني سياسة "الاحتواء المزدوج" لإيران والعراق، تمعن في التوقعات السكانية في السنوات الخمس والعشرين القادمة فقط.

الخليج الفارسي

(مليون نسمة)

	٢٠٠٠	٢٠٢٥
العراق	٢٣,١	٤١,٠
إيران	٦٧,٧	٩٤,٥

في العام ١٩٩٠، تباهت الولايات المتحدة بأسطول رونالد ريجان الذي بلغ ستمائة سفينة. ومنذ حرب الخليج، خفض أسطول الولايات المتحدة إلى النصف، وخفض الجيش إلى النصف، وخفض القوات الجوية إلى النصف. وبحلول العام ٢٠١٠، تتوقع الولايات المتحدة أسطولا من مئتي سفينة. والتحالف الكبير الذي جمعه الرئيس بوش الأول لهزيمة العراق واحتوائه قد انهار. فقد ارتدت الدول العربية، مثلما فعل الأوروبيون، باستثناء البريطانيين، الذين خفضت قواتهم المسلحة أيضا إلى النصف منذ نهاية الحرب الباردة.

كان بإمكان جيش الجنرال شوارسكوف أن يزحف إلى بغداد، وأن يشنق صدام، وأن يفرض "وكالة ماك آرثر". ولكن، مع القوات

الأمريكية الموجودة، ومع مستويات القوة المتحالفة، ومع تردد الأوروبيين والعرب في الزحف مرة ثانية معنا، لن يكون من المحتمل أن يكون هناك قطعيا عاصفة صحراء ثانية.

وبحلول العام ٢٠٢٥ سيكون سكان إيران (٩٤,٥) أربعة وتسعين ونصف مليون نسمة، وهو عدد من السكان أكبر بكثير من عدد سكان أي أمة أوروبية باستثناء روسيا. وستكون تقنية القنبلة الذرية بعمر ثمانين عاما، وستكون إيران، التي تملك من قبل الآن صواريخ بوليستيه، ستكون بالتأكيد تقريبا قد حصلت على القنبلة. ومنذ أن بدأ العصر الذري، ليس هناك من أمة تملك السلاح الذري قد شهدت أبدا أنّ أرضها الأم قد غُزيت أو أن حربا كبيرة قد شنت عليها. والأمة النووية الوحيدة التي سبق أن هوجمت كانت هي إسرائيل، وذلك بضربات كالوخزات الصغيرة من سكود من عراقٍ كان يجري تدميره.

ومثلما أبان الكوريون الشماليون للعالم، فإن أي أمة ولو كانت مارقة تستطيع أن تحصل على استماع محترم من الولايات المتحدة إذا كانت تستطيع أن تبني قنبلة ذرية.

أوروبا - رجل ميت يمشي

عندما عاد السياسي بيتمان - هولويغ(*) من فيينا ليقدم إيجازا للقيصر عن أحوال حليفهم النمساوي - الهنغاري عشية الحرب العالمية الأولى، تلعثم وزير الخارجية المهزوز وقال: "سيدي نحن متحالفون مع جثة."[٢٠] ونحن كذلك. فيما مضى كانت أوروبا أمما محاربة عظيمة حشدت ملايين من الجنود إلى ساحات المعركة من أوروبا، واليوم في القرن العشرين لا تزيد الجيوش الميدانية إلا قليلا عن قوات شرطة وطنية. لقد كشفت حروب البلقان في التسعينيات من القرن العشرين عجز تلك الأمم بدون الولايات المتحدة. في البوسنة، كان على بريطانيا وفرنسا أن تستدعيا الأمريكيين لئلا تؤخذ قواتهم رهائن من قبل الصرب المحليين.

الأحلاف إنما تدخل الأمم فيها لتقوية ذاتها. فكيف تتقوى أمريكا بمعاهدة لتقوم بالدفاع إلى الأبد عن قارة ترفض أن تجند جيوشا لتدافع عن نفسها، وشعوبها بدأت تموت؟ وباستثناء تركيا وبريطانيا، فإن أمم حلف الناتو هي عالة أكثر منها حلفاء. غائبون بدون إجازة في فيتنام، وكانوا مساعدين في حرب الخليج بشكل

(*) بيثمان- هولويغ (١٨٥٦-١٩٢١) سياسي ألماني كان مستشار ألمانيا في المدة (١٩٠٩-١٩١٧).

هامشي فقط. في خارج أوروبا، اعتادت جيوشهم بشكل رئيسي على القيام بواجبات شرطة الأمم المتحدة في أفريقيا جنوب الصحراء. ولم يبقوا قادرين على ما يبدو على استنهاض الولاءات والتضحيات التي كانت لهم في الأيام الخوالي. واليوم، يحتاج الاتحاد الأوروبي المكون من خمس عشرة أمة سنوات عديدة ليحشد ستين ألف عسكري من أجل قوته التي يتباهى بها باسم قوة الرد السريع. وتهديدات الأوروبيين في أن "يذهبوا لها وحدهم" هي تهديدات الأطفال في أن يهربوا من البيت، وهم لم ينجحوا تماما أبدا لأن أمهاتهم قلن لهم ألا يعبروا الشارع.

إن شيئا حيويا ما قد ذهب من أوروبا. في ما مضى، كانت الأمم الأوروبية راغبة في التضحية من أجل "رماد آبائهم ومعابد آلهتهم."[٢١] ولكن الأوروبيين الآن، على الرغم من أنهم أغنى وأكثر عددا مما كانوا عليه في العام ١٩١٤أو العام ١٩٣٩، ليسوا راغبين في التضحية. وقد انتشر المرض الأوروبي إلينا هنا. فالولايات المتحدة فقدت آلافا من الرجال في يوتاه وشواطئ أوماها في اليوم د(*)، ولكنها انسحبت من الصومال بعد خسارتها لثمانية عشر من رجال المغاوير في كمين. وعندما بدأ السيد كلينتون بقصف صربيا،

(*) المقصود هنا باليوم د. هو ٦ حزيران/يونيو ١٩٤٤ الذي نزلت فيه قوات الحلفاء على شواطئ نورماندي الفرنسية.

أمر الطائرات الأمريكية بأن تبقى على ارتفاع فوق خمسة عشر ألف قدم كيلا يتعرض الطيارون للخطر. وكي تتجنب الولايات المتحدة وقوع الإصابات في صفوف قواتها أمر القوات البرية الأمريكية أن تمتنع عن العمل من اليوم الأول من الحرب.

يوم أوروبا قد انتهى. والهجرات الضخمة القادمة من العالم الإسلامي سوف تغير التركيب العرقي للقارة القديمة بحيث سيكون الأوروبيون أكثر شللا بخطر الإرهاب من أن يتدخلوا في شمال أفريقيا، أو في الشرق الأوسط، أو في الخليج الفارسي. الأوربيون من قبل الآن، تجاهلوا العقوبات الأمريكية على إيران، والعراق، وليبيا . وكلما صار سكان أوروبا أكثر عربا ومسلمين حل الشلل. يجب أن نعرف. من خمسينيات ١٨٥٠ إلى الحرب العالمية الأولى كانت سياسية الولايات المتحدة نحو الإمبراطورية البريطانية رهينة لدى الإيرلنديين وهم الذين كانت أصواتهم في الانتخابات حاسمة في ولايات مثل نيويورك.

ومع انخفاض سكان الدول الأوروبية وتلاشي الأطفال، فليس لأوروبا مصلحة حيوية لتبرير إرسال عشرات الآلاف من شبابهم إلى الحرب إذا لم تهاجَم هذه الدول. وحسب معدلات الولادات الحالية، فإن عدد سكان أوروبا في العام ٢١٠٠ سيكون أقل من ثلث العدد الذي هم عليه الآن. لقد صوتت أوروبا من أجل الحياة المترفة السعيدة.

ولكن إذا كان الأوربيون غير مهتمين بهذا الشكل في حفظ ذاتهم إلى حد أنهم يرفضون أن يكون لهم عدد كاف من الأطفال للمحافظة على أممهم حية، فلماذا ينبغي على الأمريكان أن يدافعوا عن أوروبا - وربما أن يموتوا من أجل أوروبا؟ وذلك من أجل أن يتمكن الأوروبيون من الحياة الراقية حتى الالتهاب المتفجر. أوروبا عانقت مصيرها، وربما لم يكن ذلك عن وعي من كل الشعب، ولكنه كان جماعيا من كل الشعب. الأوروبيون لا يخططون للاستمرار عرقاً عظيماً حيوياً. ما الذي ندافع عنه نحن إذن؟ الحضارة الغربية؟ ولكن الأوروبيين، بقرارتهم ألا يكون لديهم أطفال، قد قبلوا من قبلُ أن يكون القرن الثاني والعشرون قرن نهاية لحضارتهم.

حل نهائي لمسألة الشيخوخة

في البيان الإنساني الثاني في العام ١٩٧٣، حض آلاف من المفكرين الأمريكيين على "الاعتراف بحق الفرد في أن يموت بكرامة، وبحقنة القتل الرحيم، والحق في الإنتحار"[٢٢] لقد كانوا سابقين لوقتهم.

في شهر تشرين ثاني/نوفمبر ٢٠٠٠، صوت المجلس الأدنى للنواب من البرلمان الهولندي بأغلبية ١٠٤ مائة وأربعة مقابل ٤٠ أربعين صوتا لجعل الانتحار بالمساعدة وجعل القتل الرحيم الطوعي

أمرين مشروعين. وكتب نات هينتوف في جويش وورلد ريفيو، "أول أمة منذ ألمانيا هتلر أوروبا تشرع ... القتل المباشر للمرضى بيد الأطباء."[٢٣] وكان البرلمان يندفع ليلحق بالأطباء الهولنديين الذين كانوا يمارسون القتل الرحيم طوال عقود مضت. وفي العام ١٩٩١، وجدت دراسة مدعومة من الحكومة أن "غالبية كل موت القتل الرحيم في الأراضي المنخفضة كانت غير طوعية."[٢٤]

وبموجب القانون الجديد، سيحتاج الأطفال الذين تراوح أعمارهم بين اثني عشر عاما وخمسة عشر عاما إلى موافقة والد كي ينتحروا أو يحصلوا على مساعدة طبيب ليقتلوا أنفسهم. ولكنهم، بعد تجاوزهم سن السادسة عشرة، لا يبقون بحاجة إلى موافقة الوالدين.[٢٥] وأتهم مجلس أوروبا الهولنديين بخرق المعاهدة الأوروبية لحقوق الإنسان، ولكن الأطباء الهولنديين كانوا قد نزلوا من قبل عميقا على المنحدر الزلق نحو الرايخ الثالث. وكما تروي ريتا ماركر من فريق العمل الدولي المضاد للقتل الرحيم:

> قبل شهر من مناقشة المجلس الأدنى للنواب القانون الجديد للقتل الرحيم، حكمت محكمة هولندية أن الدكتور فيليب سوتوريوس كان لديه من الناحية الطبية ما يبرر عمله عندما ساعد إدوارد برونجيرمسا البالغ من العمر ٨٦ ستاً وثمانين سنة لينتحر. برونجيرمسا من الناحية الجسمية لم يكن مريضا أو معانيا للآلام.

قال انه ببساطة كان "متعبا من الحياة" وأن تقدمه في العمر "وجود لا أمل فيه."[٢٦]

ومن زنزانته في السجن حيّا جاك كيفوركيان الهولنديين وتنبأ بأن أمريكا لن تتلبث طويلا خلف هولندا. وكانت جمعية هيملوك في الولايات المتحدة على الدرجة نفسها من الحماسة والأمل بأن هولندا ستبين لنا الطريق. وقال فاي غريش رئيس جمعية هيملوك: "إننا منفعلون متأثرون. ولقد أعجبنا بما كان يفعله شعب هولندا طوال العشرين سنة الأخيرة."[٢٧]

وبالنسبة إلى الجمعية الهولندية للقتل الرحيم الطوعي، يعتبر القانون الجديد ناقصا على نحو خطير، وذلك لأنه لا يمنح حقوق القتل الرحيم للذين قد تعبوا ببساطة من الحياة. فقد قال متحدث باسم الجمعية، "إننا نعتقد بأنك إذا كنت متقدما بالسن، وليس عندك عائلة بالقرب منك، وأنت فعلا تعاني من الحياة، ففي هذه الحالة ينبغي أن يكون القتل الرحيم ممكنا."[٢٨] ووافقت على ذلك وزيرة الصحة إلس بورست. وقالت: الناس المتقدمون بالسن جدا، والذين سئموا من الحياة، ينبغي أن يسمح لهم بقتل أنفسهم وقالت: "أنا لست ضد ذلك، طالما كان من الممكن تنظيم القتل بعناية وحرص كاف بحيث لا تهم وتخص إلا الناس المسنين جدا الذين تعبوا من عيش الحياة."[٢٩] فإذا كان مثل هذا المريض راغبا في أن يموت، حسب قول الوزيرة، فينبغي أن يعطى له أو لها حبة للانتحار.

وعندما وجه البابا جون بول الثاني رسالة له بمناسبة عيد رأس السنة في العام ٢٠٠٠ كانت هولندا في ذهنه بالتأكيد عندما تحدث عن "الإشارات المرعبة - وثقافة الموت - "[٣٠]

> لا نستطيع إلا أن نستحضر اليوم أن ظلال الموت تهدد حياة الناس في كل مرحلة من مراحل الحياة وهي تنذر بالخطر على وجه الخصوص في أبكر بداية للحياة وفي نهايتها الطبيعية. والغواية المغرية في سبيلها إلى أن تصير أقوى مما سبق في الاستيلاء على الموت بتوقع وصوله، وكأننا نحن سادة حياتنا الخاصة بنا أو حياة الآخرين.[٣١]

ويقف هنتوف إلى جانب الأب المقدس:

في أثناء احتلال النازيين للأراضي المنخفضة، ثار أطباء ذلك البلد ضد ثقافة الموت وذلك بأن رفضوا التعاون في قتل المرضى.

وأما الآن، فإن موقفهم المتغير يذكرني بتقرير من برلين في تاريخ ١٧ تشرين أول أكتوبر ١٩٣٣ نشرته نيويورك تايمز وفيه أن وزير العدل الألماني نوى تخويل الأطباء سلطة "لإنهاء آلام المرضى الذين لا يرجى لهم شفاء، حسب طلبهم، في مصلحة الإنسانية الحقيقية."[٣٢]

ومع ذلك، فإن نظرة صارمة على الاتجاهات السكانية والأخلاقية في أوروبا لا تلهم بالثقة بأن هذا القتال قتال رابح

بالنسبة إلى الذين يتحدث نيابة عنهم الأب المقدس. وبالنسبة إلى المسيحية التي تعلم الناس بأن الله هو مبدع الحياة، وأنه ما من أحد من البشر يملك حقا في قتل الحياة البريئة هي مسيحية ليست أصلا ناميا في أوروبا. وبحلول العام ٢٠٥٠، فإن أكثر من (١٠٪) عشرة بالمائة من سكان أكبر أربع أمم في أوروبا الغربية - بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا- سيكونون فوق سن الثمانين. فهل سيصبر عمال أوروبا، الذين يجب أن ترتفع ضرائبهم والذين يجب أن تؤجل مواعيد تقاعدهم ليعينوا بالمال تكاليف رواتب التقاعد والرعاية الصحية لهؤلاء السكان المسنين الذين تتنامى أعدادهم، هل سيصبر العمال على المحافظة على كبار السن المرضى والهرمين في الثمانينات والتسعينات من أعمارهم ليبقوا على قيد الحياة؟

وجدت دراسة جامعية في بلجيكا أن وفاة واحدة من كل عشر وفيات هناك هي وفاة من فعل طبيب، إما بإعطاء المريض حقنة قاتلة بدون إذنه أو عن طريق منع العلاج عنه.[٣٣] وفي زيوريخ، يعتبر الانتحار بالمساعدة أمراً مسموحا به في البيوت المعدة للمتقدمين في السن.[٣٤] وأطفال ازدهار الولادات في أوربا قد يعيشون حتى يروا حياتهم تنتهي، بدون موافقتهم، من مجتمع قاس غليظ القلب ضد رغبتهم في البقاء أحياء مثلما كانوا هم قساة غلاظ القلوب

ضد الأطفال غير المولودين في زمانهم. ما يذهب دائرا يعود دائرا.

بعد شغب نيوآرك في العام ١٩٦٧، علق رئيس بلديتها الأسود بذكاء قائلا: "لا أعرف إلى أين تتجه أمريكا، ولكن نيوآرك سوف تصل هناك أولاً." وحيثما تصل أوروبا اليوم. فسوف تصل إليه أمريكا غدا بالتأكيد قريبا.

في العام ١٩٨٤، أذهل حاكم كولورادو ديك لام كبار السن عندما أخبر مجموعة من الأطباء قائلا: "علينا واجب هو أن نموت ونبتعد عن الطريق مع كل آلاتنا وقلوبنا الاصطناعية.... وأن نترك المجتمع الآخر، أطفالنا، ليبنوا حياة معقولة."[٣٥] وفي هيئة التعليم في جامعة برنستون الآن أستاذ أسترالي متخصص بالأخلاقيات البيولوجية، وهو بيتر سنغر، يحاجج بأنه إذا ما ولد طفل يعاني من إعاقات شديدة إلى درجة أن والديه وأطباءه يرون أن من الأفضل له أن يموت، فإنه سيكون أمرا أخلاقيا أن نقتل هذا المولود الجديد ونترك الوالدين ليفكرا في طفل معافى.[٣٦] ومحاججة سنغر ليست غير منطقية. فإذا سلمنا للوالدين بحقوق إجهاض طفل غير مولود حتى الشهر التاسع، فلماذا يفقد هذان الوالدان الحق بإنهاء حياة الوليد في اللحظة التي ينزلق فيها الجنين إلى خارج الرحم؟

إن لأفكار سنغر سلالة سابقة عظيمة التأثير. ففي السابق

وعودة حتى العام ١٩١٩، كانت مرغريت سانغر تحذر أمريكا في مجلتها عن تنظيم النسل بيرث كنترول ريفيو وتقول: " المزيد من الأطفال الأصحاء.[٣٧] والأقل من غير الأصحاء." وفي الحال كان الأمريكيون والألمان يتنافسون في تعزيز أفكار سانغر. وفي العام ١٩٢٠، نشر كاتبان هما د. ألفرد هوتشيه، أستاذ الطب النفسي في جامعة فريبورغ، وكارل بندينغ، أستاذ القانون في جامعة لايبزغ، نشرا كتاب الإذن بتدمير الحياة التي لا تستحق الحياة. ويحاجج الكتاب في الحالة التي تتصل بالانتحار بالمساعدة من أجل المرضى مرضا نهائيا والمرضى الذين هم "أصداف فارغة من المخلوقات البشرية، " والمتخلفين عقليا، والذين يعانون من عطب في الدماغ ومن ظروف طبية نفسية.[٣٨] ووجد استطلاع للرأي أن ثلاثة من كل أربعة من الآباء الألمان فضلوا السماح للأطباء بإنهاء حياة الأطفال المعوقين إعاقة حادة.[٣٩]

في تشرين أول أكتوبر من العام ١٩٣٣، اقتبست نيويورك تايمز من وزير العدل عند هتلر قوله بأن تخليص المجتمع من هذه المخلوقات المسكينة سيجعل من "الممكن للأطباء أن ينهوا عذابات المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، حسب الطلب، وفي مصلحة الإنسانية الحقيقية."[٤٠] وأما الأموال الموفرة فيمكن استخدامها لينتفع بها "أولئك الذين هم على عتبة العمر المتقدم."[٤١] إن لغة

الرقة مألوفة لنا جميعا. إنها تعيد إلى الذاكرة كلمات ووكر بيرسي التي وضعها في فم الأب سميث في كتاب الأعراض المتزامنة للرغبة بالموت فيقول: "هل تعرف إلى أين تقود الرقة؟ ... الرقة تقود إلى غرفة الغاز."[٤٢]

وفي شرحهم لقضيتهم، استطاع النازيون أن يشيروا إلى تشرتشل الذي "أراد أن تموت لعنة الجنون، " وجورج برناردشو الذي قال في العام ١٩٣٣: "إذا كنا نرغب في نوع معين من الحضارة يجب علينا أن نستأصل نوع الناس الذين لا يلائمون فيها."[٤٣] وهي أفكار الفوهرر بالضبط، يا بريطانيا العظمى.

وبين أول وأشهر القضايا عن الانتحار بالمساعدة كانت قضية "بيبي كنور." فقد رفع والد الطفل الصغير التماساً مباشراً إلى هتلر من أجل السماح لابنه، وهو أعمى، ومتخلف عقليا، وفاقد لذراع وساق، بأن يموت. وأحال هتلر الطلب إلى طبيبه كارل براندت. وفي العام ١٩٣٨ صدر له الإذن.

وصار"موت الرحمة" شائعا في ألمانيا. وفي "مراجعة لكفاحي، " قدمتها الصحفية دوروتي تومبسون في اختيار نادي كتاب الشهر لعام ١٩٣٩، فإن تلك الصحفية نددت بهتلر إلا في مسألة واحدة:

> في موضوع تحسين النسل يكتب (هتلر) كتابة عقلانية، إلى حد ما. والمختصون بتحسين النسل في كل أنحاء العالم سيوافقون معه على

أن غير الصالح للتناسل على نحو واضح ينبغي أن يعقم. ولكن قوانين التعقيم الألمانية تشمل مدمني الخمر المعتادين، وإنها لفكرة تدعو للتفكه فلو أن هذه القوانين وجدت في النمسا قبل هتلر. فإن هتلر نفسه ما كان يمكن أن يولد أبدا (ولا كان يمكن أن يولد، بالمناسبة، بيتهوفن أو نيتشه.)

هناك أساس علمي، على الرغم من أن الميدان يحتاج إلى المزيد من الاستكشاف، لبعض أفكار هتلر عن تحسين النسل.[٤٤]

ويُرجّع الشاعر دبليو بي ييتس أصداء السيدة تومبسون إذ يقول: " بما أن التحسينات في الزراعة والصناعة تهدد بإزالة آخر كابح لتكاثر الجماهير غير القابلة للتعليم ... فإن أفضل السلالات لم تكن تقوم بتعويض أعدادها، بينما كانت تقوم بذلك أغبى السلالات وأقلها صحة."[٤٥]

عندما جاءت الحرب، تلقت أفكار هتلر في تحسين النسل "المزيد من الاستكشاف." فأمر هتلر بقتل الرحمة" للحياة التي لا تستحق الحياة. الآكلون عديمو النفع." . الأطفال المشوهون والمتخلفون تخلفا شديدا.[٤٦] وكان الاسم الرمزي للبرنامج "اكشن ٤" وقد قتل هذا البرنامج عشرات الآلاف قبل أن يؤنب الأسقف كليمنس فون غالين، في موعظة نارية في كاتدرائية منستر في ١٩٤٠، نظام هتلر على جريمة "القتل الواضح" ودعا الكاثوليك إلى

أن "يسحبوا أنفسنا ومؤمنينا من تأثيرهم (النازيين) كيلا نتلوث بتفكيرهم وسلوكهم الذي يغضب الله "[٤٧]

اهتزت برلين، فوضعت البرنامج علنا في حالة توقف، ولكنها، استمرت فيه بهدوء. وفرانز ستانغل، هو أحد المتمرسين بمشروع آكشن ٤، يقوم بعمله الدراسي العالي في مكان يدعى تريبلنكا. وفي الحكم في نورمبرغ، وهو فيلم ١٩٦٠، صور مونتغمري كليفت سينمائيا ضحية برنامج النازيين في تحسين النسل الذي وافقت عليه دورثي تومبسون بشروط.

ولكن ليس هناك من فيلم أبدا صور حتى الآن ريموند لودلو، وهو بطل أمريكي عاد إلى الوطن من الحرب العالمية الثانية وقد نال نجمة برونزية، وقلبا قرمزيا، ووسام سجين حرب. وفي مطلع العشرينات من عمره، كان لودلو قد كرر الهرب، فكان أن أجبر على التعقيم بموجب قوانين فيرجينيا، وهي واحدة من إحدى وثلاثين ولاية أقرت قوانين التعقيم القسري في أيام الصفاء أيام مارغريت سانغر.[٤٨]

فالمعركة بين الذين يعتقدون بقدسية الحياة الإنسانية، وبين الذين يعتقدون أن بعض الحيوات لا تستحق أن تعاش ويجب أن تنتهي، هي بهذا الشكل معركة ليست جديدة. وأوروبا والحالة هذه تواجه مستقبلا سيكون فيها ثلث شعبها أكبر من خمسة وستين سنة

وأن واحدا من كل عشرة أكبر من ثمانين سنة ـ ومع القليل من أمثال الأسقف فون غالين وجون بول الثاني معهم ـ فإن النتيجة على ما يبدو لن تكون موضع الكثير من الشك.

إسرائيل والشرق الأوسط[٤٩]

على الرغم من أن سكان إسرائيل يتزايدون، فإن اتجاه الجيران يساعد المرء على فهم السبب الذي توصل من أجله المحاربون ـ السياسيون من أمثال إسحق رابين وإيهود باراك إلى قرار بأنهم لا يملكون أي خيار سوى أن يقايضوا الأرض مقابل السلام.

معدل الخصوبة عند الفلسطينيين في إسرائيل هو ٤,٥ طفلا لكل امرأة، وفي الضفة الغربية ٥,٥ طفل لكل امرأة، و في غزة ٦,٦ طفل لكل امرأة. إذا كان موضوع السكان هو المصير المقدر لكل مجتمع، فإن إسرائيل تكون في أزمة وجودية لا يمكن إلا أن تتفاقم بالاحتلال العسكري المستمر وبتوسيع المستعمرات. تمعن في الأرقام:

ملايين البشر

	٢٠٠٠	٢٠٢٥
إسرائيل	٦,٢	٨,٣
الأردن	٦,٧	١٢,١
مصر	٦٨,٥	٩٥,٦
سورية	١٦,١	٢٦,٣
لبنان	٣,٣	٤,٤
المملكة العربية السعودية	٢١,٦	٤٠,٠٠

في السنوات الخمس والعشرين المقبلة، سينمو عدد سكان إسرائيل (اليهود والعرب) فيزيد (٢,١) مليونين ومائة ألف نسمة، بينما سيتعاظم عدد جيرانها العرب ويزدادون (٦٢,٢) اثنين وستين مليونا ومائتي ألف نسمة. والآن انظر بإمعان في "المشكلة الفلسطينية" لدى إسرائيل.

في غضون خمسة وعشرين عاما سيكون (٢) مليونا فلسطيني داخل إسرائيل، و(٧) ملايين في الضفة الغربية وغزة، و(٧) سبعة ملايين في الأردن. (١٦) ستة عشر مليون فلسطيني يعيشون متلاصقين مع (٦) ستة ملايين يهودي إسرائيلي. (ستون بالمائة من السكان الأردنيين هم فلسطينيون.) في العام ٢٠٥٠ سيكون (٣) ثلاثة ملايين فلسطيني داخل إسرائيل، و(١٢) اثنا عشر مليون

فلسطيني في الضفة الغربية وفي غزة، و (١٠) عشرة ملايين فلسطيني في الأردن - (٢٥) خمسة وعشرون مليون فلسطيني يعيشون مع (٧) سبعة ملايين يهودي إسرائيلي في منتصف القرن.

وليس هناك من دولة عربية واحدة من بين اثنتين وعشرين دولة اليوم مؤهلة لتوصف بأنها ديمقراطية بشكل كامل. ومع ذلك فكلما صارت الدول أكثر ديمقراطية، يجب أن تزيد استجابة أنظمتها لإرادة "الشارع العربي." وهؤلاء الذين يخبروننا بأن الديمقراطيات لا تذهب للحرب أبدا مع بعضها قد يرون هذا الرأي قيد الاختبار، عندما تصير الدول الملكية العربية إلى المزيد من الأنظمة "الديمقراطية"، مثلما حدث في طهران مع الإطاحة بالشاه.

عودة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)

في بداية القرن السابع الميلادي، كان عالم البحر الأبيض المتوسط عالما مسيحيا. ولكن، وفي غضون خمسين عاما من هجرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة في العام ٦٢٢م، اكتسحت جيوش الإسلام الساحل الجنوبي من ذلك البحر الداخلي. وفي أوائل القرن الثامن أزاح العرب والبربر جانبا

مقاومة الفيزقوط الضعيفة، واجتاحوا إسبانيا، وعبروا جبال البرنس إلى فرنسا، حيث خاضوا واحدة من المعارك الفاصلة في التاريخ. وفي تور(*)، هزم " مطرقة الإفرنج" شارل مارتل المسلمين الذين انسحبوا إلى الخلف فوق الجبال. وكتبت هيلاري بللوك: " هكذا تم إنقاذ أرض المسيحية في اللسان الواقع بين الأنهار، على مسافة قليلة من شاتلرو، وعلى مسيرة يوم شمال بواتييه."[٥٠] وباستثناء مملكة صغيرة من الأستورياس(**)، التي ستكون قواعد معسكر الاسترداد الإسباني، فإن الإسلام قد هيمن على شبه الجزيرة الأيبيرية لقرون. ولم يطردوا حتى العام ١٤٩٢ عندما قام فرديناند وإيزا بيللا بطرد المسلمين أخيرا من إسبانيا.

وفي الشرق، جاء الغزو الإسلامي لاحقا. ففي القرن الرابع عشر، دخلت الإمبراطورية العثمانية البلقان، هزم العثمانيون

(*) معركة تور قرب بواتييه: قاد عبدالرحمن الغافقي رحمه الله المسلمين وعبر جبال البرنس، وهزم الأفرنجة في بوردو وتقدم نحو بواتييه، وهي مدينة في غرب فرنسا الوسطى إلى شرق الجنوب الشرقي من مدينة نانت، ثم تقدم نحو تور، وهي مدينة في غرب فرنسا الوسطى على نهر اللوار، وهناك اشتبك المسلمون مع جيش بقيادة شارل مارتل (٦٨٨-٧٤١) الملقب بالمطرقة وهو جد شارلمان ملك الافرنج فيما بعد، وقد حلت بالمسلمين هزيمة فادحة ولم يحاولوا بعدها عبور جبال البرنس. وكانت المعركة في ١١ تشرين أول أكتوبر في العام ٧٣٢م.

(**) أستورباس: منطقة ومملكة سابقة في الشمال الغربي من أسبانيا من السكان الأصليين لشبه جزيرة أيبريا قبل الغزو الروماني لها في القرن الثاني قبل الميلاد.

الصرب في معركة كوسوفو في العام ١٣٨٩، و سقطت في العام ١٤٥٣ القسطنطينية. وفي العام ١٦٨٣ كان الأتراك على أبواب فيينا عندما أوقفهم الملك البولندي جون سوبييسكي. ولكن لم يخرجوا حتى العام١٩١٣ عندما تم أخيرا طردهم من معظم البلقان.

وجاء المد العالي للإمبراطورية الغربية مع نهاية الحرب العالمية الأولى. ففي تشرين ثاني نوفمبر ١٩١٧ صرح آرثر بلفور وزير الخارجية أن سياسية حكومة جلالة الملك هي أن تخلق وطنا قوميا لليهود في فلسطين، هذا في الوقت الذي كان فيه الجيش البريطاني بقيادة اللنبي يسير إلى القدس. وذهبت الإمبراطورية العثمانية باستلام البريطانيين والفرنسيين وبموجب اتفاقية سايكس ـ بيكو تقاسم البريطانيون والفرنسيون الأسلاب. بعد ثلاثة عقود، ولدت دولة يهودية بين العرب، تحت رعاية الإمبراطورية البريطانية والأمم المتحدة الواقعة تحت هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الإمبراطورية البريطانية كانت في تراجع. بحلول العام ١٩٤٨، خرجت من الهند، وخرجت من فلسطين، ثم خرجت من الأردن، وخرجت من مصر، وخرجت من العراق، وخرجت من الخليج، وكانت الإمبراطورية الفرنسية تسير في أعقابها قريباً.

والآن الإشارات موجودة في كل مكان تشير إلى أن الإسلام

ينهض مرة ثانية. هناك حركة إسلامية انفصالية نشيطة في الفليبين. والقوات الإسلامية تخوض المعارك مع الانفصاليين المسيحيين في إندونيسيا. ومن فلسطين إلى باكستان هتف غوغاء الشارع يستحسنون مذبحة البنتاغون ومركز التجارة العالمي. ولسنوات قدمت طالبان الأفغانية الملاذ الآمن لأسامة بن لادن وخلاياه الإرهابية وأرسلت المجاهدين إلى الجمهوريات السوفييتية القديمة في آسيا الوسطى ولمساعدة ثوار الشيشان للقتال في روسيا. وفي آذار مارس ٢٠٠١ أمر أمير الطالبان الملا محمد عمر بتحطيم كل التماثيل الدينية بما في ذلك تمثال بوذا الكبير في باميان الذي يعود تاريخه إلى القرن السابع، وصرح بقوله: " هذه الأصنام كانت آلهة للكفار."[٥١]

وطُردت إسرائيل من لبنان على يد حزب الله ويجري دفعها إلى خارج الضفة الغربية وخارج غزة على يد الانتفاضات التي تتولى فيها حماس دورا قياديا. وفي تركيا، وفي الجزائر جاءت الانتخابات في التسعينيات من ١٩٩٠ إلى السلطة بأنظمة إسلامية، وأزيحت هذه الأنظمة بوسائل أخرى غير ديمقراطية. وفي مصر جددت الميليشيات الإسلامية اضطهاد الأقباط المسيحيين. وفُرض القانون الإسلامي الآن في عشرة من الولايات الشمالية من نيجيريا.

في أوروبا، تموت الصلوات الجماعية المسيحية، والكنائس

تفرغ، والمساجد تمتلئ. هناك خمسة ملايين مسلم في فرنسا، وما بين اثني عشر مليون وخمسة عشر مليون مسلم في الاتحاد الأوروبي.[٥٢] ويوجد ألف وخمسمائة مسجد في ألمانيا.[٥٣] لقد حل الإسلام محل الدين اليهودي بوصفه الدين الثاني في أوروبا. ومع تناقص المد المسيحي وخروجه من أوروبا، فإن المد الإسلامي يدخلها. وفي العام ٢٠٠٠ سيكون هناك لأول مرة عدد من المسلمين في العالم أكثر من عدد الكاثوليك فيه.[٥٤]

وفي حين أن الأيديولوجية" الإسلامية" قد فشلت في أفغانستان، وإيران، والسودان في خلق دولة حديثة تستطيع أن تملك ولاء شعبها وتخدم لتكون نموذجا للأمم الإسلامية الأخرى، فإن الدين الإسلامي لم يفشل. وفي العلم، والتكنولوجيا، والاقتصاد، والصناعة، والزراعة، والتسليح، والحكم الديموقراطي ما تزال أمريكا، وأوروبا، واليابان متقدمة بأجيال للأمام. ولكن العالم الإسلامي يحتفظ بشيء قد فقده الغرب: وهو الرغبة في أن يكون لديه أطفال والإرادة لمتابعة حضارتهم، وثقافاتهم، وعائلاتهم، وإيمانهم. ومن الصعب اليوم، أن تجد أمة غربية لا يموت فيها السكان المحليون، ومن الصعب على الغرار نفسه أن تجد أمة إسلامية لا ينفجر فيها عدد السكان المحليين. قد يكون الغرب تعلم ما لا يعرفه الإسلام، ولكن الإسلام يتذكر ما قد نسيه الغرب: " ليس هناك رؤية إلا بالإيمان".

إسرائيل على سبيل التشبيه

مثلما كانت منطقة القناة الأمريكية، وروديسيا البريطانية، وجمهورية جنوب أفريقيا بالأمس، قد ينظر إلى إسرائيل اليوم بصفتها شبيها وعالما صغيرا من الغرب نفسه.

في حرب استقلال إسرائيل في العام ١٩٤٨، توسعت إسرائيل إلى ما وراء حدودها التي قررتها الأمم المتحدة بكثير. واستغلت إسرائيل الغلطات الفادحة من مصر جمال عبدالناصر والأمم المتحدة تحت أمينها العام يوثانت في العام ١٩٦٧، فاستولت على مرتفعات الجولان السورية، والقدس الشرقية العربية، والمدينة القديمة، وغزة، والضفة الغربية، واحتلت كل سيناء حتى قناة السويس في ستة أيام. وفي العام ١٩٨٢، دفعت إسرائيل منظمة التحرير إلى ضواحي بيروت وطردتها.

ولكن تراجع أرض إسرائيل بدأ من زمن سابق. في العام ١٩٧٣، عاود المصريون عبور القناة واسترجعوا سيناء الغربية. وبعد خمس سنوات، استعادت مصر شبه جزيرة سيناء بأكملها. وفي الثمانينيات من ١٩٨٠ والتسعينات من ١٩٩٠ أدارت المليشيات الإسلامية حرب عصابات هي التي أجبرت الإسرائيليين على الخروج من لبنان، وشن الفلسطينيون انتفاضة أجبرت إسرائيل على

أن تقدم الأرض مقابل السلام. ومع حلول العام ٢٠٠٠ عرض رئيس الوزراء باراك نسبة ٩٩٪ تسعة وتسعين بالمائة من مرتفعات الجولان مقابل السلام مع سورية وعرض نسبة ٩٥٪ من الضفة الغربية وغزة زائدا القدس الشرقية، مقابل السلام مع فلسطين مستقلة. ورفض الأسد وعرفات العرضين.

حتى لو قبل العرب إسرائيل، فما هو الضمان لها بأن تكون هذه المطالبات بالأرض هي آخر المطالبات الموجهة إلى الدولة اليهودية؟ ولماذا يجب على العرب، بعد أن يكونوا قد هضموا ما تعطيه إسرائيل، ألا يتابعوا هدف طرد " الكيان الصهيوني" من الشرق الأوسط؟ يقول الإسرائيليون إنهم يعرضون على جيرانهم سلاما عادلا، ولكن العرب قد يرون إسرائيل بصفتها أمة في تراجع، وتحاول أن تعقد أفضل صفقة تستطيعها. لماذا لا ينبغي للعرب أن يعتقدوا بأنه مثلما أن الحرب جاءت بإسرائيل إلى طاولة المفاوضات لتقدم الأرض مقابل السلام، فالمزيد من الحرب سوف تنتج المزيد من الأرض مقابل السلام؟

من وجهة نظر العرب الحرب ناجعة. فحرب يوم الغفران في العام ١٩٧٣ أدت بإسرائيل إلى تسليم سيناء. وجهاد حزب الله طرد إسرائيل من لبنان. وانتفاضتان أجبرتا إسرائيل على أن تعرض أن تسلم كل الضفة الغربية، وغزة، والقدس الشرقية تقريبا. وأما قوة

إسرائيل العسكرية، فإنها لم تبق قادرة على أن توقف تراجع إسرائيل بأكثر مما أوقف تفوق الغرب العسكري تراجعه. هل منعت العشرون ألف سلاح نووي لدى روسيا فقدانها لأوروبا الشرقية، ودول البلطيق، وأوكرانيا، وكازاخستان، وبقية إمبراطورية موسكو في القوقاز وآسيا الوسطى؟.

هاهنا هو التشابه مع الغرب. هل هو في طبيعة الأشياء أن الأمم والحضارات تصعد، وتتوسع، وتهيمن، وتحكم لتتراجع فقط وتقدم المساواة لرعاياها من الشعوب الخاضعة. وهو عرض يقبل، إلى أن يكتسب هؤلاء الرعايا من الشعوب القوة ليصعدوا، ويتوسعوا، ويهيمنوا هم أنفسهم؟ هل عصرنا عصر المساواة بين الأمم هو حقيقة نهاية التاريخ أو مجرد هدنة مؤقتة، وسلام زائف، ووقف إطلاق نار، وزمان الانتقال من يوم هيمنة الغرب إلى اليوم الذي يدفع فيه الغرب إتاوة؟ لقد كتب مرة المؤرخ البريطاني جيه. ئي. فراوند أنه "إذا كان عشرة رجال يعتقدون بشيء ما اعتقادا عميقا إلى الدرجة التي يكونون معها مستعدين للموت في سبيله، وإذا كان عشرون رجلا يعتقدون بشيء ما اعتقادا عميقا إلى الدرجة التي يكونون معها مستعدين للتصويت من أجله، فإن الرجال العشرة سوف يسنون القانون على العشرين."[٥٥] وعندما ننظر إلى أمريكا، وآسيا، وأوروبا، والشرق

الأوسط، فأي الشعوب اليوم تظهر ميلا أعظم للموت في سبيل مصيرها؟

هل كل وعظنا حول المساواة بين الشعوب هو خداع متعمد للذات؟ هل هو مجرد مقدمة لصراع متجدد للسيطرة على مصير الرجال والأمم، صراع غرب غني، يتجرد من السكان، ويموت، مع عزوف عميق عن الحرب، ولد من حمامات الدم في القرن العشرين، هل هو صراع مقدر للغرب أن يخسره؟ وكما قال سوفوكليس، يجب على المرء أن ينتظر حتى المساء ليرى كم كان اليوم رائعا. فهل هو مساء الغرب؟

النزعة الحربية، والاستشهادات، ونعم، عدم التسامح هي علامات صعود الأديان والقضايا الغالبة. المسيحيون الأوائل الذين قبلوا الموت وفضلوه على حرق البخور للآلهة الرومانية كانوا بعد قليل يسحقون تلك الآلهة الرومانية ـ لا مساواة لهم. عند تعميد كلوفيس، أنذر أسقف ريميس ملك الفرنجة، " إحن رقبتك. احرق ما تعبد، واعبد ما تحرق!."[٥٦] ليس مسكونيا يا صاحب الغبطة. الملوك البروتستانت والملوك الكاثوليك على السواء لم يجبنوا عند حرق الهراطقة أو سحبهم وإعدامهم عند شجرة تايبرن. المسيحية التي غلبت العالم لم تكن إيمانا جبانا، ولم يكن حماة ذلك الإيمان يعتقدون بأن كل الأديان كانت

متساوية. كانوا يعتقدون أن دينا واحدا كان صحيحا، وكل ما بقي كان كاذبا.

ومن منابر الكنائس المسيحية نسمع اليوم اعتذارات حزينة عن الخطايا الماضية: "كنا على خطأ في مرافقة الغزاة الفاتحين، وعلى خطأ في فرض ديننا على السكان المحليين، وعلى خطأ في أن نكون خدم الإمبراطورية. إننا نعترف، إننا نرجو المغفرة من الذين أخطأنا وأخطأ آباؤنا بحقهم."

ويمكن لهذا أن يكون الطريق إلى الجنة، ولكنه يستطيع أن يقود إلى الجحيم على الأرض. ويعلم التاريخ أن الكلب الذي يصدر النباح الضعيف هو الذي يُرفس. من ذا الذي سيعتنق دينا يتجول رهبانه ووعاظه في المسوح والرماد ليكفروا عن خطايا القرون الماضية؟ هل الناس الذي يتعلمون الآن بأنهم كانوا ضحايا الروح العرقية المسيحية هل سيكونون راضيين بالاعتذارات؟ هل سيقولون ما مضى قد مضى؟ أم أنهم سيقولون: "هؤلاء المسيحيون الذين اضطهدنا أجدادهم ونهبونا، هم الآن مشلولون بالشعور بالذنب ولا قوة لهم في المقاومة. دعونا نسترجع ما أخذوه منا، ثم دعونا نأخذ ما يملكون."؟

هل تأنيب الضمير للطوائف المسيحية في "مجرى التفكير العام" يعني أنهم ارتقوا إلى مستوى أخلاقي أعلى، أم أن هذا هو

مجرد تجلٍ لخسرانهم الإيمان بصحة المسيحية وتفوقها؟ إذا كان الغرب يتوقع حياة طويلة، فإن من الأفضل له أن يستعيد الاستيلاء على الإيمان المقاتل الذي كان له في شبابه. وذلك لأن من طبائع الأشياء أن الأمم والأديان إما أن تحَكم أو تُحكم. إن أزمنة المساواة هي هدنات مؤقتة في صراع لا نهاية له. لقد قال الكاتب المسرحي الروماني بلاتوس: الإنسان ذئب للإنسان." وأضاف توماس هوبز: أعتبر أن هناك ميلا عاما للإنسانية كلها، ورغبة دائمة قلقلة لسلطة بعد سلطة، لا تتوقف إلا في الموت."[٥٧]

ومثلما هو الحال مع إسرائيل فهي أمة ميسورة حديثة محاطة بجيران فقراء لهم ظلامات تاريخية، فكذلك هو الغرب، فهو حضارة ثرية حديثة محاطة بجيران فقراء لهم ظلامات تاريخية. ومثلما هو الحال مع المثقفين الغربيين فهم الأخشن نحو التاريخ الغربي، فكذلك هم "المؤرخون الجدد" لإسرائيل "ما بعد الصهيونية" فهم يرسمون ميلاد أمتهم بأحلك الألوان. ومثلما أن الغرب يعتقد بأن كل الأمم ستكون راضية بما لديها، فكذلك بعض الإسرائيليين يعتقدون أن الفلسطينيين سيكونون راضين عن بانتوستاناتهم في غزة وفي الضفة الغربية. ولكن لماذا يكونون راضين؟ عندما يزداد عدد الصينيين على عدد الروس بنسبة عشرين إلى واحد بدلا من عشرة إلى واحد، لماذا لا يسعى

الصينيون للعودة لادعاء واستعادة ما أخذ منهم عندما كانت روسيا قوية وكانت الصين ضعيفة؟

إسرائيل تواجه إسلاما له تاريخ قديم بصفته دينا مقاتلا وشعوبا مستعدة للموت في سبيل قضية، بينما أمريكا تشترك بألفي ميل من الحدود مع المكسيك. وهكذا فربما كان التشابه غير صحيح تماما. ولكن أمريكا بعد ذلك ليست هي البلد الذي كانت عليه فيما سلف. في العام ١٩٥٣ أمر عسكري عجوز لا تغلبه العواطف أسمه آيك كل الغرباء غير الشرعيين أن يخرجوا من الولايات المتحدة في" عملية القفا المبلول". هل يستطيع أحد أن يتخيل السيد بوش وهو يأمر خمسة ملايين أو عشرة ملايين من الغرباء غير الشرعيين بأن يطردوا من الولايات المتحدة؟

كما قالت غولدا مائير مرة إن إسرائيل لم يكن لها صديق أفضل من ريتشارد نيكسون، فهو الذي أنقذ أمتها في حرب يوم الغفران في العام ١٩٧٣. ولكن ريتشارد نيكسون كما يتذكر المؤلف لم يكن أعمى عن قوى التاريخ. فقد اعتاد أن يقول: " يجب على السياسي أن ينظر النظرة الطويلة المدى." ففي سان كليمنت مرة، بعد أن توقف لزيارة مجاملة من إسحق رابين، وهو صديق قابلناه في إسرائيل في غضون أيام بعد حرب الأيام الستة، سألت زوجتي، شيللي، الرئيس السابق عن الأحوال المتوقعة مستقبلاً لإسرائيل.

ورد نيكسون: "على المدى البعيد؟" ومد قبضته اليمنى، وإصبعه الإبهام للأعلى، بأسلوب إمبراطور روماني يقضي بحكم على مصارع مجالد، ثم إن الرئيس وببطء أدار إبهامه متجها به للأسفل. ولم أسأله أبدا عما يفكر به حول الأحوال المتوقعة مستقبلا للغرب.